عند الطبيب

علاء سعد حميدة
مصر

جلستُ في وجل أمام مكتبه.. يفض مظروف نتيجة التحليلات الطبية في انتباه..

هي الخطوة الأخيرة في سلسلة إجراءات طبية متتالية بدأت بالفحص العام، وتتابعت إلى أنواع مختلفة من الأشعة والتحليلات.. أخذ يقرأ النتائج التي بين يديه دون أن يتخلى عن وقاره المعروف.. أشفقتُ من التركيز على وجهه في أثناء القراءة فأشحتُ بوجهي أتأمل سرير الكشف ذا الملاءة البيضاء بجواره الميزان الرقمي الدقيق، ثم عدت أتأمل جهاز قياس ضغط الدم على الجانب الأيمن من المكتب.. حتى قال الرجل الوقور بنبرته الحيادية الخالية من التعاطف أو الشفقة:

الأمر يا صديقي كما كان واضحا منذ البداية.. الإحباط الحاد زحف كما الورم على كل فراغ القفص الصدري.. غطى تجويف الصدر بطبقة أشبه بالخرسانة المسلحة.. لا مجال أمام الرئة لتبادل الهواء.. وكما ترى في مثل هذه الحالات لا يجدي أي نوع من التدخل الجراحي أو العلاجي.. كل ما نملكه المسكنات والعلاجات التلطيفية حتى ينفذ أمر الله وهو على وجه اليقين قريب.. فلا تبتئس.

أطرقت إلى الأرض مشفقا من مواجهة عينيه المحايدتين وأنا أسأل سؤالا تقليديا كأنما لأقول شيئا أي شيء أنهي به اللقاء: لا أمل إذن!؟

هتف الرجل منشرحا لأول مرة منذ قابلته قبل أسابيع: هذه الكلمة التي نطقت بها ربما دون وعي: يا صديقي هي العلاج الوحيد أو هي بداية العلاج.. كلمة الأمل.. فكلما اتسعت دائرة الأمل في نفسك تقلصت معها رقعة الإحباط حول قفصك الصدري.. وانفرجت أمام رئتيك مساحة لتبادل الهواء.. عليك وعلى الأمل..

تساءلت متغابيا: ألن تكتب لي وصفة لصرف دواء!؟..

أجاب بحسم: لا دواء.. أنت طبيب نفسك.. فداوها بما شئت..

خرجت من العيادة وأنا أحاول أن أتذكر كل المبشرات التي وعيتها صغيرا.. وأتممتم: (فإن مع العسر يسرا، إن مع العسر يسرا)، (إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون)، «أنا عند ظن عبدي بي».

ولرب نازلة يضيق بها الفتى ... ذرعا وعند الله منها المخرج
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها ... فرجت وكنت أظنها لا تفرج

وكلما خطوت خطوة ونطقت بجملة شعرت بخفة في جسدي، وانتظام في أنفاسي، وتمدد في رئتي أسمع له صوت تكسير الخرسانة المسلحة التي غطت صدري في الآونة الأخيرة بالإحباط الحاد■